قطار الفجر

« الجزء الثاني »

* * *

لوالدي ... يطل في ابتسامه ...
يضمني .. يسر لي كلامه ..
.. وفجأة .. في هدأة السكينه ..
وقد غفا الجميع في المدينه ..
الا صدى النقيق للضفادع ..
وموجة الحفيف .. في المزارع ...
يصيح بي القطار .. من بعيد ..
« اهل ترى .. قد عدت يا أبي ..؟
اوحشتني .. والله .. يا أبي ؟
هل جئت من مجاهل الوجود ؟
ام عدت من مدينة قريبه ؟.
وها هنا اهب من فراشي ...
واقذف الغطاء... في انفعال ..
وافتح النافذة الشرقيه ..
كي ابصر النساء والرجال ..
من راكبي القطار في الصباح ...
فتدخل النسائم النديه ..
كأنها انفاس عائدين ..
لاهلهم .. بالحب .. والحنين...
والكل .. في يمينه .. حقيبه ..
هدية الحبيب للحبيبه ..
هدية الآباء .. للصغار ..
وكلهم .. يسير مسرعا ..
يدق .. بالحنين باب داره ..
من قبل ان يدقه بكفه ..
ويمسك المفتاح في اشتياق ..
كرقية من عالم الاشواق ..
كالفظة الاسرار .. للعبور ..
لعالم المحبة الكبير ..
لعالم سماؤه عبير ...
وارضه أزهار ...
وتذهب القوافل السعيدة ..
لارضها .. لارضها البعيدة ..
ويقفر الطريق من خطاهم ..
سوى الغبار من صدى خطاهم ..
ويدخل الغبار من شباكي..
فتنحني عليه كل ذره ...
تدور في دمائي ..
لقفته ... لقفته ... بلهفة ..
عسى به عبير من احبه ..
من عشت مصغيا الى نداه ..
لو يرسل القطار لي صداه
لكنه .. في الفجر .. لم يعد ..
بل عاد كل والد .. لطفله ..
ولم يعد لطفله ... أبي

٤ ــ الطفل المذنب !!

« .. يا والدي .. الناس عيروني..
بأنني في ارضهم ... يتيم
بأنني أحيا بغير اب ..
كانني من والدي .. ذنب ..
فعد .. لكي أحس بالطفوله ..
نحلت .. مثل امي النحيله..
يا والدي.. حتى الصغار..خاصموني
لانني بوجهي الحزين ..
لم اشترك .. في لعبة الصغار ..
وسبني بالامس .. طفل جار ...
« ارجع الى الوراء .. يا يتيم ..
وفي يديه قطعة من حلوى
يمتصها .. مفاخرا .. بنشوه .
لم يعطني .. ولو اقل قطعه..
فعشت يا ابي ، للفجر ، دمعه
وسرت ... مرة .. بلا رفيق
هناك .. عند منحنى الطريق ..
لجارتي .. الصفصافة الوحيده ..
تظلني بظلها الرؤوم ..
ولا تقول للصغير : يا يتيم ..
كسائر البشر !..
والخطة .. واقبل الاطفال ..
جماعة .. في الريح .. طائرين ..
وابصروا بالساهم الحزين ..
تغامزوا .. من شكله الطريد ..
وقهقهوا من صمته الذليل ..
وقام بينهم .. فتى يقول :
دعوه ... انه عليل ..
وهمهم الكبير في صياح ..
اذهب.. الى هناك .. يا مسلول
فصاح بينهم فتى سمين
ابوه خلف دارنا « جزار »
قوموا بنا نصطاد يا صغار ..
ولنقذف الحصى .. على الاطيار ..
ووجهوا النبال للاشجار ..
فهرولت طيورها .. مذعوره ..
وهومت على الثرى .. عصفوره ..
جريحة الجناح .. ترتمي ...
ككل رعشة .. من الدم ..
لكائن .. يموت ،
وعينه تدق بالحياه ..
تقول : لا اريد ان اموت ..
لانني خلقت للحياه..
لان في الفضاء .. ملعبي
يا نور .. يا ربيع .. يا أبي ...
ما طرت بالجناح .. كي اعود
مهيضة الجناح.. في التراب ..
.....
لكنني افقت من خيالي ..
لرشقة .. تصيبني .. برأسي..
ولطمة .. تضج فوق خدي ..
وصرخة تقول : يا عليل ..
اذهب .. الى هناك .. يا مسلول .
فقلت للصغار في هدوء ..
لكنني .. في جلستي .. بعيد
ولم أسيء .. اليكمو .. رفاقي..
فقهقهوا : اسأت يا عليل ..
نخاف ان نراك يا مسلول ..
وفجأة .. شعرت بالاكف ..

١ ــ الطفل المشئوم !..

تشاءمت من مولدي النساء ..
اذ جئت كانتفاضة الشتاء ..
في ليلة الربيع !..
وجدتي تقصها خرافه ...
تقول : كم حكت لنا عرافه ..
بأن حظ عمرك .. العذاب ..
وهكذا كبرت بالعذاب ..
كأنني الملاح في السراب ..
.. يا جدتي : لكنني بريء..
وليس لي في شقوتي جريره ..
سوى جريرتي ..بأنني ولدت ..
ونحو عالم الشقاء ... قد مشيت..
فيرتمي بمسمعي صداها ..
كغيمة الدخان في الاطلال ...
«.. « لكنها حكاية العرافه .. »
« وبعد ان ولدت يا صغير...
انهال فوق بيتنا المطر !..
ولم نكن.. في موسم الشتاء !.
ومات من جيادنا ... جواد
كم سابق الرياح في انطلاق .
ومات فجأة .. بلا سبب !
وكان في صهيله ... طرب
صدقتهم .. وعشت للالم ..
الحن الدموع.. في نغم ..

٢ ــ زهرة الجليد ..

لقصتي .. بقية الدموع .
اذ شاخت ابتسامة الربيع ..
على فمي .. على فمي الرضيع
اللحفاف .. يورق الربيع ؟
رباه :ــ انت خالق الورود ..
اتنبت الورود في الجليد ؟؟
رباه : زهرتي على جبل
في قمة الثلوج .. يا اله ..
تنسل من عبيرها الحياه ....
فهل أنا المسئول .. يا اله ؟؟
أم انت يا مصور الجمال ؟
بريشة الضياء والظلال ..
نسيتني في غربة الظلام ...
نسيت زهرة على الجليد ..
فأطفأت عبيرها الودود ..
واسبلت جفونها الصغيره ...
على يد الاشواك .. في الظلام ...
لعلها .. في ليلها .. تنام ..

٣ ــ النافذة الشرقية ..

وحينما بلغت في السنين ...
عشرا .. لعلها قرون ..
ولم يعد لدارنا ابى ..
ولا تزال صيحة القطار ..
تهزني ... في مخدعي بقوة ..
تذيقني المشاعر . العتيه ..
تشق ليلتي كسيف نار ...
وكم سمعت في السكون ... دقتين
لادمع كبيرة ... كبيرة ..
تسيل فوق وجنتي الصغيره
وصورة .. في الحائط الطويل ..

تنهال فوق جبهتي بعنف ..
لكنني .. من ثورة الشقاء
من يوم ان عرفت .. ما الشقاء ..
من يوم ان سهرت في الظلام ..
لم اخشه .. لم ارهب الظلام ..
من يوم ان تمردت دموعي ..
فلم تسل .. بل .. عشن في ضلوعي
سمعت .. والصغار يضربون ..
وبعضهم .. هناك .. يضحكون ..
سمعت .. فجأة .. صدى القطار ..
« ... يا والدي .. لبيك .. في النهار ..
قد عدت بعد غربة المزار ..
واهتاجت الحقيقة الدفينه ..
وانطلقت كل نبضة سجينه ..
يا قوة الشقاء في الحياه ..
يا دفعة العذاب للمظلوم ..
ياصيحة الضعيف .. لو يثور ..
شدى يدي فتى نحيلتين ..
يا والدي .. امدد يدي في ضربتين
ليبتني الصغار هاربين ..
وهكذا .. في الطفوله ..
ما ثورة الشقاء .. ما البطوله ..
اذ هرول الصغار .. خائفين ..
من قوة ... في ساعد مسلول !..

٥ ــ نداء القطار .. نداء القطار

ما السر ان بيتنا البعيد ..
قد كان .. جنب « سكة الحديد » ..
يمر .. كل ساعة قطار ..
تلوح في ندائه .. ديار ..
وعالم بعيد ..
وبعد ان انام .. في سلام ..
وتسكن الدموع في الظلام ..
تنشق عنه ظلمة السكون ..
كأنه يجيء .. من غدي ..
من عالم يلتف بالضباب ..
وفي الضباب .. قد مشت وجوه
من بينها .. يسير لي ابي ..
وفي يديه .. يحمل الهديه
الية الميلاد ..
لكنه .. ما عاد لي ابي ...
ولا يزال يهتف القطار ..
ميعاده في الليل والنهار ..
وها انا اسير للكهوله ..
ولا تزال لهفة الطفوله ..
تثور كلما اتى قطار ..
هربت في صداه للمجهول ..
لغابة يهمى بها المطر ..
والشمس في سمائها .. ابتسام ..
يا عالم الاسطورة العجيب ..
هناك .. خلف شاطيء الغروب ..
رحلت .. كالصياد .. في البحار ..
مفتشا في الليل والنهار ..
عن والدي .. عن طلعة المحبة ..
لكنني في الحلم لا اراه ..
فليقبل القطار .. دائما ..
فصوته .. يهز نائما ..
« انهض .. واستقبل الاحباب ..
وافتح لمن يزورك الابواب ..
فليس للحياة .. من سبب ..
الا لقاؤنا بمن نحب ..
من غيبة الرحيل ..

٦ ــ قصة من الواقع ..

طفولتي .. اسطورة الحقيقه ...
تثور بالتجارب العريقه ..
عراقة الانسان في الالم ..
وقصتي .. لدمعها .. بقيه
من ادمعي .. كتبتها وصيه
لو جاء .. في الحياة .. لي وليد
مشيئة الحياة والوجود
وليس من مشيئتي .. انا ..
في ليلة مطيرة .. هوجاء ..
مقرورة الظلال .. والضياء ..
رقدت في الظلام .. صاحيا ..
كأنني فراشة الشتاء ..
من غير اجنحه ..
وكان بهو بيتنا الوسيع ..
يئن في رحابه مصباح ..
انفاسه تنسل في ارتجاف ..
كأنها انامل الاطياف ...
شعاعه الكليل يرتجف ..
كشهقة الشموع ..
في ساعة احتضار ...
وفجأة .. رأيت في الظلال ..
انسانة تسير كالخيال ..
دبيبها الغريب في الظلام ..
كأنه تنهيدة السكون ..
كم هزني .. كآهة الاله ..
لو انه تحسس الشفاه ..
وقبل الدموع في الشفاه ..
وبثنا العزاء .. في الحياه ..
رأيتها تنهار بالبكاء ..
ورأسها للارض في انحناء
وتارة .. تطل للسماء ..
وتارة .. تدق منضدة ..
فيشهق الانين في الخشب ..
سمعتها .. تئن .. تنتحب ...
« يا خالقي .. وخالق الاطفال ..
من يحرس الاطفال في الحياه ؟
يا رب .. خذ بكفي الضعيفه ..
فانني .. يا خالقي .. ضعيفه ..
وليس في العيون من حياه ..
الا من الدموع .. يا اله ..

٧ ــ انها .. امي ..

وقمت .. يرتمي دمعي .. عليها ..
وقبلت مدامعي .. يديها ..
وانبثقت دموعها .. بعيني ..
وادمعي .. مشت .. بمقلتيها ..
وفجأة .. سمعت .. من بعيد ..
قطارنا ... يضج بالنداء ..
فقلت والدموع تبتسم ..
الن يعود .. في الضحى .. ابى ؟؟
اوحشتني .. والله .. يا ابي ..
فاهتزت الانسانة الشقيه ..
وتلقفتني بلهفة بعوه ..
واسلمت عيني .. دمعتين ..
لا زالتا .. في القلب .. نبضتين
سألتها .. ما السر في البكاء ؟..
الن يعود والدي .. مع القطار ؟
فغمغمت تقول في ذهول ..
« ابوك يا بني في رحيل ..
لكنه .. في الفجر .. لن يعود ..
وفي المساء يا صغير .. لن يعود ..
كذبت يا بني، كي تعيش ...
على المنى .. في لهفة .. تجيش ..
.....
وجمدت مشاعري النديه
حرارة .. من نجمة قصيه ..
تساقطت .. على يدي .. رماد ..
واطلق القطار في السهول ..
نداءه .. العالم الجميل ..
وصوته كالطرقه السحيقه ..
تدق باب دارنا العتيقه ..
من غير ان يبين .. من أتى !!

٨ ــ الرجل الصغير ..

ولا ازال في الحياة .. اذكر ..
ما قلته بادمعي .. لامي ..
« يا أم .. من يعود في القطار ..
حسبتهم .. جميعهم آباء .. !
عادوا .. مع الصباح .. للابناء !
لكنها .. رنت الى عيوني ..
وقطبت في قسوة غريبه ..
وصوتها يقول في وقار ..
دع يا صغير .. قصة القطار ...
ولتترك الدموع والوجل ..
فانت .. ها هنا .. لنا .. رجل ..
لا تشمت الاعداء في أبيك ..
فانهم باليتم .. عيروك ..
وللناس للضعيف يكرهون ..
والناس بالفقير يشفقون ..
لكنهم .. في السر .. يهزأون ..
من ذلك الممزق الضعيف ..
لا بد يا بني ان نكافح ..
لا بد ان نعيش اقوياء ..
لم تخلق العيون للبكاء ..
وانما .. كي تفرش الطريق ..
بالحب .. والضياء ..
فليفخر الانسان .. بالالم ..
فانه من يلهم النغم
.....
لكنني .. اسير للكهوله
ولا تزال لهفة الطفوله
تثور كلما اتى قطار ..
في هداة المساء .. في النهار ..
ودائما .. أحب ان اسافر ..
في صوته .. لعالم بعيد ..
هناك .. خلف ضجة المدينه

القاهرة **محمد الجيار**